في النتاج الابداعي العربي
كيف تكتب الاديبة عن الرجل
وكيف يكتب عن المرأة
ولماذا ؟

ديزي الامير

الابداع عملية متشابكة، متداخلة، عميقه، تفلسف الظواهر بمزجها الفكر الواعي بالفكر اللاواعي. اي انها تلاحم الافكار المطروحة وتلك التي لم نكن ندري انها مخزونه في العقل الباطن.

وتأتي الساعة، اللحظة التي تتفاعل فيها هذه المشاعر الواعية واللاواعية فيستلمها المبدع «المرهف الحس» ليجعل منها عالماً ليس خاصاً به يتذوقه ويتفهمه المتلقي.

انه يسلط الضوء بصورة جمالية، تكتشف الاطر التي تحيط بما نعيشه ويمزجه باحداث عشناها أو تمنينا أن نعيشها أو خفنا منها فيأتي لنا باحداث وحالات جديدة.

هذا هو فن الكتابة، الفن الذي يستطيع ان يرتفع بافكارنا وآمالنا واحلامنا وهواجسنا الى أعلى مستويات الانسانية او يهبط بها الى درك ماكنا ندري انه موجود في الحياة بهذه القسوة اوبهذه العذوبة.

المعاناة التي يمر عليها الناس، تمر على المبدع فيتناولها ليقدم لنا حقائق جديدة ولكن... ليس هناك جديد إلا وله جذور عميقة الغور في ارض الحياة. المبدع يستطيع الارتفاع بغرائزه واحاسيسه ويجبلها بطين الحياة فاذا الثوابت ليست ثوابت مع انه، اي المبدع، يعيش في عالم عادي بقيوده واعرافه وتقاليده، لكنه يستطيع

الخروج من كل هذا الحصار بآراء خاصة وجمال خاص ينير لنا الطريق. لذا سمي المبدع ضمير المجتمع لأننا سواء اقتنعنا بما اعطانا أم لم نقتنع، فهو قد هزّ هذا الضمير الراكد وحرّك وجداننا، فيضطر العقل الباطن الى المشاركة في تذوق وتفهم هذا الجديد الذي لن يتوقف ما دام صباح جديد ستبزغ شمسه كل يوم، ونحن سنبدأ يوما جديداً له مفاهيم جديدة.

هل تكفي الموهبه، ليصبح الفرد مبدعاً ام ان ظروف المعيشة الخاصة لها دور في البدء والتوقف او عدم الظهور اصلاً ؟

المبدع والمبدعة يعيشان في نفس المحيط وفي نفس البيت، ولكن التقاليد والاعراف التي تواجههما في الحياة ليست واحدة وكمية الصدق الذي هو اساس الابداع ليس واحدا.

بالنسبة للمبدع فانه يستطيع التحكم ببعض ظروفه.

فهل تستطيع المبدعة ان تتحكم ببعض من ظروفها ليتوفر لها التعبير عن حقائق تريد طرحها ؟

كثير من المبدعات بدأن واعدات او مميزات ثم توقفن فجأة. هل السبب يعود الى تقاليد الاسرة ام ان فرداً دخل حياة الكاتبة فتوقفت ؟ واذا توقف كاتب مميز عن الكتابة فهل السبب هو نفسه الذي جعل المبدعه تتوقف ؟

كثير من الاسئلة تطرح في المقارنة بين وضع المبدعه العربية والمبدع العربي.

ولكن لنفترض ان الطرفين المبدعين استمرا في النتاج الابداعي ولا بد لكل منهما، ما دام يعيش في مجتمع فيه نساء ورجال، ان يأتي على ذكر الجنس الآخر في أعماله.

فكيف يكتب كل طرف عن الآخر ؟ هل يتفهم نفسيته وشخصيته بوضوح ليكون النتاج صادقاً ؟

نظرة الى العالم العربي باقطاره، التي هي الى حد ما، متباينة في التقاليد والمفاهيم والأحكام، يجعلنا لا نستطيع اصدار حكم واحد على ظروف النساء المبدعات.

فالفرق واضح في المقارنة بين مقاييس المجتمعات في هذه الاقطار، ولبنان ليس مقياساً يؤخذ به، لانهّ سبق غيره في الحرية التي مكنت ظهور المرأة المبدعة المحققة لذاتها ولكن الى حدود معينة.

مؤخراً وقبل سنوات ليست بالكثيرة، خطت بعض المجتمعات العربية خطوات واضحة في مفهومها الايجابي للمرأة المثقفة والمبدعة ولا نستطيع ان ننكر ان عدد المبدعات ازداد، وبعضهن يتمتع بحرية اوسع من وضع العقود الماضية، مما اتاح للمرأة تطوراً ذهنياً ومقدرة على اصدار القرارات. ولكن الاجيال السابقة هي السبب في تحديد تطور افراد البيت المثقفين الراغبين في مشاركة الوعي الحضاري لأهمية تطور المرأة. في كثير من الاسر العربية، يعيش ثلاثة اجيال في بيت واحد وليس ذلك لسبب مادي دائماً بل بسبب رابطة الدم التي نتغنى بها كثيراً وهي في حقيقتها وصاية وليست محبة، وخوفاً وليس مساندة، وتحكما وليس حناناً.

الاستقلال الذي يجب ان ندعو اليه هو الاستقلال الشخصي وليس الاستقلال السياسي فقط.

الاولاد احياناً اكثر فهماً للحياة من افراد الجيل الأول القديم فيصعب على الجيل الثالث تحمل السيطرة.

كيف يتطور المجتمع بتقاليده المتوارثة وثلاثة اجيال تختلف مفاهيمها، تعيش معاً ؟

الجيل الاكبر هو الحاكم المطلق والثاني هو الحائر المتردد والثالث هو المتعب الرافض.

ولولا احكام الجيل الاكبر لقفز الجيل الجديد قفزة عالية، لأن لديه مقومات الثقافة والانفتاح والطموح. مقومات تحتاج الى احتضان الاسرة لها بدل ان تكبل بالمفاهيم البالية العتيقة التي تمنعها من العيش حسب التطورات العالمية المقبولة انسانياً.

فيلجأ هذا الجيل الى السفر، ظاناً ان الهروب هو الحل الافضل، فيؤدي به البعد في اكثر الاحوال الى الضياع لأن الحاجة الى العائلة تبقى مهمة. ولكن هذه العائلة لو كانت موجودة مع الأولاد لزجرتهم وقد تمنع عنهم العون المادي، فتكون النتائج وخيمة واقسى مما يتصور الاهل وتتسع الهوة بين الطرفين الخاسرين.

قلنا ان الابداع، لا نفاق فيه ولا تظاهر ولا كذب. انه الصدق الصافي حتى لو كان حلماً، ينبع من النفس فيطفو ويفرض وجوده بالكتابة عنه.

فهل تستطيع المبدعة قول ونشر هذه الحقائق ؟ والرقابة لها بالمرصاد ويتساوى في هذا المبدع والمبدعة فرقابة الاهل والجيران

والاصدقاء اضافة الى الرقابة الرسمية التي تتقاضى راتباً لتقدم التقرير الى من يحكم. فأين المفر ؟

التنفيس بالسياسة ؟ بالانتماء الى احزاب قد تحول المنتمي إليها الى بوق الى رمز لقول ما يراد قوله بتلميح للمعاني التي يراد قولها، دفعاً للظلم الذي يمنع العيش بصورة طبيعية ؟

لو عاش المبدعون جمال حرية الحياة لما سُيِّس الادب فالمفروض ان السياسة وجدت لمساعدة الانسان واذا بالانسان عبد للسياسة.

وحين يرفض المبدعون هذه القيود يهرب المبدع الى الجنس. لم يكن الجنس في يوم اسلوباً انسانياً للهرب بل انه يؤدي الى مشاكل خلقية ومرضية اصعب واشد قبحاً.

اذا كان هذا الواقع ينطبق على الجنسين المبدعين فكيف وقعه على المبدعة التي لها قيودها الحياتية الخاصة، اضافة الى ما ذكرنا من قيود. فتتعب من الملاحقة ويُلغى من نفسها الاحساس بقول ما ينضح من النفس فتتقوقع في زاوية ما يسمى بالادب النسوي. تشتكي همومها البيتية وسيطرة الرجل عليها وهي مذعنة وتدخل في دوامة (من الجاني على الآخر المرأة ام الرجل) والنتيجة القاسية تقع على المرأة. فكيف بالمبدعة المحرومة من العطاء ؟ تلقي اسباب كل مشاكلها على الرجل ولكنها لا تستطيع ولا مقدرة لها على عقابه او القسوة العلنية فتقسو على نفسها وتظلم هذه النفس. ولا شيء اصعب من ظلم النفس للنفس ولا القسوة الذاتية عليها.

كيف اذن تكتب المبدعة ؟ كيف نطلب منها ان تعلن موهبتها الصادقة والاغلال تكبل الافواه والاقدام الى الايدي والعقول ؟

نعود الى عالم الابداع. هناك مسافة وثغرات بين النتاجين النسوي والرجالي، فهما لا يلتقيان ولا يتفاهمان على زاوية الرؤيا لان لكل منهما منظاره الخاص، مع انهما هما الاثنان يمثلان دوريهما باتقان على مسرح الحياة، والجمهور المشاهد ينحاز الى الطرف الاقدر لان هذا هو دوره في التمثيلية التي يشارك هو ايضاً فيها.

ما الذي يحتاجه مجتمعنا كأساس لبناء سليم ؟ نحتاج الى صداقة بين المرأة والرجل وبالتالي صداقة بين المبدعات والمبدعين وجمهورهما. اي نحتاج حواراً بينهما يتفهم فيه كل طرف نفسية الطرف الثاني وعقليته دون خلفيات.

لن يتفقا في الآراء، وهذا أمر طبيعي وليس امراً سلبياً فمن غير المعقول ان يرى المبدع والمبدعة نفس التفسير لحدث اجتماعي أو انساني واحد.

والحوار لا يكون بين طرفين متفقين في الرأي فقط لأنه ان كان هكذا فالفائدة منه قليلة لان الحوار حرية وابداء الرأي ثقافة واختلاف الرأي استفادة وزيادة معرفة وخطوة الى تقارب نحتاجه بينهما.

الاختلاط المحترم بين النساء والرجال هو السبيل لتفهم كل مجموعة لنفسية الطرف الآخر. حينذاك يستطيع المبدعان ان يكتبا عن الطرف الثاني وهما ليسا جاهلين له ولا موقف عدوانيا يفصل بينهما.

في كتابة المبدعات والمبدعين عن بعضهما، ابتعدت المادة عن ذكر حقائق النفس البشرية الطبيعية، لانهما في العيش ابتعدا عن بعضهما واعتمدا الاحلام والشكوك والخوف والشهوة.

كيف يتصور الرجل المرأة حينما يكتب عنها ؟

أظنه يكتب عنها كما يشتهيها. فتاة يانعة جميلة مغرية قد تبادله العواطف وقد لا تفعل ولكنه لا يرضى ان تنتهي المعرفة دون لقاء وحديث وحوار يحمّله كل ما يتمنّى في احلامه ان يحدث له معها وقد يتمادى في الاحلام فيكتب عن لقاء عاطفي يتطور بسرعة وبصعوبة ولكنه يصل الى درجة الوصال لأنه واثق من حبها له.

المرأة في حس المبدع العربي احدى حالتين، انوثة وشباب مثيران اوسيدة فاضلة تفرغت لاسرتها وقد تكون امه او اخته او احدى قريباته ولكنها عانس ولا يحاول الاديب ان يكتشف احاسيس هذه الانثى التي فارقت الربيع.

كيف تشعر ؟ ماذا فاتها من الحياة ؟ كيف تتقبل حياتها الحالية ؟ والمستقبل ؟ هل تخشاه أم تريد نسيانه هو والماضي ؟

هذه امور ليست من حسبان المبدع وليست مهمة في عرفه ما دامت هذه المرأة الخريفية لم تعد جميلة ولا نضرة وغير صالحة للحب.

والكاتبة المبدعة، كيف تصور الرجل الذي تكتب عنه ؟

انه شاب جذاب تحبه، تعبده، لا تستطيع الابتعاد عنه. فاذا لم تنته المعرفة بينهما الى اعلان رسمي لها فهو خائن غدّار.

هذان التصوران لدى الكاتب والكاتبة يجسدان الثقة المطلقة لدى الرجل، بقوة شخصيته وجاذبيته وقدرته على الايقاع بأية فتاة مهما علا جمالها. ولمَ لا ؟ الا يكفي كونه رجلاً لتنجذب اليه كل الفتيات المغريات ؟

اما الكاتبة فهي تصور بنفسها عدم ثقتها بكيانها كامرأة وأهمية وجودها في الحياة.

الكاتب غير الواثق بنفسه يهاجم الفتيات لأنهن يضعن المادة في المقام الاول لاختيار من يحببن.

والمرأة الكاتبة المتأثرة بالمظاهر او المحرومة تبقى تحلم بفارس الاحلام القادم على جواد ابيض يحمل لها الجاه والثروة يرميهما تحت قدميها الرشيقتين. وبصورة عامة فقضية المرأة هي الرجل تعيشها وتكتب عنها.

هذه الصورة الرومانسية ليست حديثه عن تصوير المبدعة للرجل والمبدع للمرأة ولا زالت آثار هذا النمط موجودة في بعض النتاج الكثير غير الرفيع المستوى.

وبتطور المجتمع وبانفتاحه المحدود أو الواسع تغيرت نظرة المبدع للمرأة وكذلك نظرة المرأة للرجل.

إذ دخلت الحياة عناصر جديدة في مفاهيم العيش لدى الاديب وخاصة في الروايات والقصص فصارت النساء بكل اشكالهن واعمارهن يدخلن في احداث ما يكتب. فهناك المرأة المناضلة والتي وصلت الى مناصب قيادية او وظيفة عالية. ولكن هاته النسوة يصوَّرن على انهن فقدن انوثتهن واغراءهن ولا علاقة لهن بالعواطف، فاذا أحسسن بأية اختلاجة عاطفية لجمنها خوفاً من سخرية المجتمع.

برز ادباء سموا بكتاب المرأة لتخصصهم بالكتابة عنها وذلك حسبما يتصورونها. وهؤلاء صوروا انفسهم ديكة تلاحقهم الدجاجات وبفخر صوروا المرأة شاكية باكية غدر الرجال ولكنها تسامح وتتنازل لارضائهم. ففي عرف هؤلاء الكتاب ان قضية المرأة تتمحور حول الرجل ولكن ليس على نمط الاسطورة التي تقول بملاحقة الرجل للمرأة المتكبرة المتعالية يلاحقها هو وتتدلل هي عليه.

أما الكاتبة الحديثة فهي اكثر واقعية واكثر تصوراً في كتابتها،

تضع للرجل مكانة محدوده لا تغطي كل المساحات وهي اما ان تعلن عواطفها بصورة علنية جداً او تعتم على عواطفها وتلغيها.

تغيير ثالث جديد دخل على دنيا الابداع اذ لم يعد باب الغزل او كتابات العواطف كالحب والرثاء والفخر وادب المناسبات هو الشائع كما في الشعر مثلاً بل اصبح الادب مبنياً على قضايا انسانية ومحاولات لفلسفة الحياة والزمان والمكان. وصار الادب السياسي مهماً لأن القضايا السياسية العالقة في عالمنا العربي كثيرة واصبح التعاطي في السياسة واجباً وطنياً قومياً للرجل والمرأة معاً.

الكاتب السياسي يذكر في اعماله النضالية المرأة ولكن بصورة مهينة جداً فهو يلجأ الى الجنس متنفساً لفشله او تعبه النضالي والحزبي والسياسي كما يلجأ الى الخمرة كعامل مساعد ومخدر للنسيان.

عند الاديبات دخل الجنس بصورة ليست واسعة كدليل لرفضهن الوصاية وتحديهن للتقاليد. اما الخمرة فلم يأت دورها ولا اظنه سيأتي لأن لا أحد يظن أن الخمور حاجة ضرورية للحياة ولأن تعاطيها شائع عند الرجال ومحرم على النساء عادة.

هذا النوع الادبي الجديد لم يلغ وجود المرأة في نتاج الرجل بل غيّر من دورها حتى شوّهها.

الاديبة الغت تقريباً صورة الرجل في إنتاجها. ولهذه النقطة خلفية خلقية إجتماعية. فالمناضلة يجب أن تخنق عواطفها الخاصة وتكرس حياتها وتقدم مشاعرها للوطن، للحزب أو للخط السياسي الذي تعلنه.

قد يكون هذا الالتزام السياسي الذي التزمته المناضلة هو المتنفس العاطفي لها وهو تأييد لموقف رفيق النضال ولكنها تعتم على هذا الرفيق لئلا تفقد مكانتها السياسية. والامر ليس على هذه الصورة لدى الاديب المناضل الذي يفخر بعدد الفتيات اللواتي احببنه لأهميته وبادلهن الحب لانهن منقادات إليه في السر والعلن.

المرأة لا يشفع في تنزيهها مما يسيء الى سمعتها، التزامها السياسي والنضالي وتضحياتها لاجل الوطن، والسمعة السيئة هي علاقتها برجل. وقد تتهم باخفاء قضايا منافية للاخلاق

مارستها في السر. يذيع هذه الاتهامات عنها النساء اكثر من الرجال ولايضير الرجل ان يؤكد هذه الشائعات حتى لو كان بعيداً عن معرفة تجربة المناضلة الشخصية التي على اساسها كتب ما كتب عنها. يكفي في مجتمعاتنا ان تُلقى تهمة مجهولة لتتلقفها الف اذن ويعلنها الف لسان من النساء او الرجال وتسجلها اعمال نسميها ابداعية.

اذا تركنا الابداع السياسي والنضالي جانباً، نستطيع القول ان الاديبة تستطيع فهم الرجل والكتابة عنه تاليا افضل مما يستطيع هو ان يكتب عن المرأة.

بقاء الرجل في البيت لفترات محدودة يجعله يعلن حقائق شخصيته بلا تمثيل لأنه لا يخشى احداً من افراد العائلة. والمرأة داخل البيت ومع هذا الرجل تكتم ما في نفسها وتتظاهر مرغمة بالرضى.

خارج البيت الاثنان يقابلان ويصاحبان اصدقاء من جنسهما اكثر مما يتاح لهما لقاء افراد من الجنس الآخر.

ولكن المرأة حتى في لقائها صديقاتها، حذرة في كلامها وتصرفاتها لانها لا تأتمن احداً على خصوصياتها وتستبيح خصوصيات الاخريات. ولا بأس من الاعتراف بأن المرأة اكثر من الرجل رغبةً في الكلام واذاعة الاشاعات مما يجعل نفسيتها مكشوفةً أمام الاخريات ولكن ليس امام الرجل. والرجل في لقاءاته مع اصدقائه لا يقتصر الحديث بينهم على الآخرين بل ان المحور الأهم هو الحديث عن الأمور العامة.

وهكذا يكشف الرجل حقيقته في البيت اذ لا يعنيه انزعاج الآخرين من تصرفاته لأنه غير مقيد.

اما المرأة فهي غير ذاتها الحقيقية امام الرجل بل تمثل لترضيه في البيت وفي الخارج مع قلة هذه اللقاءات.

لذلك كانت المبدعة اقرب الى الحقيقة في تصويرها لشخصية الرجل عندما تكتب عنه بينما المبدع اقل دراية بنفسية المرأة فيكتب عنها كما تصور هي نفسها او كما يشتهيها ان تكون.

ونوجز التفاصيل بأن في عالم الابداع، العربي قادر على تصوير نفسية الرجل افضل من تصوير نفسية المرأة.

وكذلك هو الأمر لدى المبدعة القادرة على تصوير شخصية المرأة

وهمومها اكثر من درايتها لنفسية الرجل.

هذه نظرة عامة اجمالية في السجال بين عالمي المرأة والرجل في دنيا الكتابة الابداعية عن بعضنا البعض.

طبعا هناك حالات خاصة نادرة في ادبنا العربي كتب فيه احدهما عن الآخر بصورة صادقة أمينة عميقة كأن احدهما تقمص شخصية الآخر كما فعل فلوبير مثلاً في تصوير شخصية مدام بوفاري في طموحاتها وخيبات املها وقد صرح مرة انه هو مدام بوفاري.

هذا مسح عام سريع للتفاهم وسوء التفاهم القائم بين المرأة والرجل في مجتمعاتنا العربية تناول الابداع أدبا من قبل الطرفين ولكنه لا يمثل كل الاعمال الابداعية. فلا شك ان هناك مبدعات ومبدعين نظرتهم أعمق واكثر صدقاً واعلى وارفع وأسمى من النماذج التي ذكرت.

وما دام هذا النوع من الاديبات والادباء موجوداً فلنتفاءل بتطور الاعمال الابداعية ونأمل بقراءة نتاج يبتعد عن العداوة التقليدية وتبادل الاتهامات. لن يحصل هذا ببساطة ويسر وفي وقت قريب لأن المستقبل حينما يصبح ماضياً يستحيل ارجاعه لنعود ونتساءل حينذاك مرة اخرى ماذا سيحمل المستقبل.

ديزي الأمير

*عراقية
* اديبة ونحاتة
* كاتبة قصص قصيرة
* من مؤلفاتها :
- البلد البعيد الذي تحب، بيروت، دار النضال، ١٩٦٤
- ثم تعود الموجة، بيروت، دار النضال، ١٩٦٤
- وعود للبيع، بيروت، دار النضال، ١٩٨١
- على لائحة الانتظار، بيروت، دار النضال، ١٩٨٨ - ١٩٩٠.

وقد ترجم العديد من قصصها الى الانكليزية والفرنسية والنروجية والالمانية والروسية والهولندية واليوغوسلافية.

*DE LA CRÉATIVITÉ DANS LE MONDE ARABE**

Daisy AL-AMIR

L'auteur aborde la problématique de l'écriture en général et de l'écriture féminine en particulier dans le monde arabe à travers la question des libertés. Elle constate le poids des contraintes socio-politiques et familiales et déplore le préjudice que celles-ci portent à l'épanouissement du talent et de la créativité, pour la femme encore plus que pour l'homme. Elle dévoile aussi les images steréotypes de la femme et de l'homme que reflètent la plupart des romans arabes modernes.

*ON CREATIVITY IN THE ARAB WORLD***

The author tackles the issue of writing, and that of women's writing, in particular, in the Arab World in connection with the issue of liberties. She deplores the oppressive weight of the socio-political constraints imposed on creativity, even more so for women than for men. She also unveils the stereotyped images of womanhood and manhood that are reflected in so many modern Arabic novels.

* La version originale en langue arabe p.٤١
** The original Arabic version p. ٤١